صفحات من «سيرة ذاتية» ـ ٤

بدايات
الأدب... والحب!

الدكتور سهيل ادريس

قضيت في الكلية الشرعية خمسة أعوام (١٩٣٧ ـ ١٩٤١) خلعت في نهايتها الزيّ الدينيّ، على غير رضى من أبي. وفي العام الأخير منها انصرفت إلى دراسة مكثّفة خاصّة في البيت لموادّ شهادة البكالوريا التي استعنت في بعضها، الرياضيات والفرنسية تحديداً، بأستاذين كانا يعطيانني بضع ساعات في الأسبوع.

في الكلية الشرعية أحببت دروس القرآن التي كان يعلّمنا إياها الشيخ محمد عمر الداعوق الذي كان نموذجاً للأخلاق والعلم الصحيح، بخلاف كثيرين من المدرّسين المشايخ. وكان مدرّس الحديث، الشيخ محمد العربي العزوزي، مضطرب المنهج، غائم التفكير، فلم يستطع أن يُحبّبنا بالحديث النبويّ الذي ظلّ الشكّ حول صحيحه وموضوعه يدور في عقولنا.

وقد حفظت معظم القرآن، ولا أزال أصغي كلّ صباح إلى تلاوات منه، لا سيما تلك التي يؤدّيها الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى اسماعيل، والشيخ محمد سليمان السعدني، ولا أحبّ كثيراً تلاوة أبو العينين شعيشع التي أراها متكلّفة كأنما يؤدّيها المقرىء على مشقّة، ولا تلاوة عبد الباسط عبد الصمد التي أراها تصعد من الرأس، لا من القلب.

وإذا كان في الدارسين مَنْ يجد في أسلوبي بعض تماسك وفي لغتي بعض إشراق، فالفضل في ذلك إلى القرآن الكريم.

وقد حفظت كذلك كثيراً من الأحاديث النبويّة، لا بفضل مدرّس الحديث، بل بفضل قريب لي لجهة أمي هو جميل الداعوق، والد صديقي الدكتور بشير الداعوق. فقد كان ذلك الرجل يحبّ الحديث ويشجّعني على حفظه. وقد كافأني ذات مساء على حفظي الأربعين النوويّة وإلقائي إيّاها في حفلٍ عائليّ أقامه في مصيف «عيناب»، وكانت المكافأة قلم حبر مذهّباً أحسست إحساساً غامضاً حين تناولته أنه ربما كان إرهاصاً بدرب الكتابة الذي سأسلكه كأنه قَدَري.

والحقّ أن الشيخ الداعوق الذي علّمنا الإنشاء، فترة من الزمن، قد تنبّأ من بعض فروضي التي صحّحها، أنني سأمتهن الكتابة، كما تنبّأ بذلك الشيخ علي الطنطاوي الذي درّسنا الأدب في الكلية الشرعية مدّة عامين، فجَعَلنا نتذوّقه ونحبّه، وكنت أتمنّى دائماً أن تنشر لي مجلة «الرسالة» المصرية بعض إنتاجي كما كانت تنشر لأستاذي علي الطنطاوي.

وبين الشيخين الداعوق والطنطاوي، جاؤونا بمدرّس للأدب العربي من دمشق يُدعى الشيخ صالح الفرفور لم نلبث طويلاً حتى اكتشفنا أنه كان حافظ شعر لا مدرّس أدب. وقد حضر درسه الأوّل في صفّنا رئيسُ الكلية الشرعية

الـذي أراد الفرفـور أن يدغـدغ مشاعـره، فبدأ درسـه بهـذا البيت:

فـمـن غـطارفـةٍ في جـلّقٍ نُـجُـبٍ
ومـن غـطارفـة في أرض لـبـنـانِ!

وهو لم يتورّع عن الاشـارة إلى نفسه لـدى إنشاده الشـطر الأول، ثم أشـار وهـو يتلو الشـطر الثـاني إلى رئيس الكليـة الـذي ابتسم ابتسـامـة عـريضـة، وخـرج من الصـفّ مسروراً...

وقـد أرادنا الفـرفور، وكنّـا نتنـدّر بـاسمـه الـذي لم يكن يتناسب مع لحيته الطويلة وصرامة وجهه، أن نحفظ قصيـدة قرأها علينا بصوت جهوريّ وحركات مسرحيّة كان مطلعها:

أفـاطـم لـو شـهـدتِ بـبـطن خَـبْـتٍ
وقـد لاقـى الهِـزبْـرُ أخـاك بشرا
إذن لـرأيـت لـيـثـاً أمّ لـيـثـاً
هِـزَبْـراً أغـلـبـاً لاقـى هـزبـرا
تـبـهـنس إذ تـقـاعس عـنـه مُـهـري
مُـحـاذرةً فـقـلـت: عُـقـرتَ مُـهـرا!
أنِـلْ قـدمـيّ ظـهـر الأرض إني
رأيـت الأرض أثـبـتَ مـنـك ظـهـرا!

وحفـظنا هـذه الأبيات ومـا يليهـا، وسمّعنـاهـا في اليـوم التالي، مقلّدين الأستاذ الذي كان يبتسم راضياً، إلى أن جاء دور طالب كان معروفاً بجرأته ومجونه، فـأخذ ينشـد الأبيات متمهّـلاً، ويتقصّد التـوقّف عند كلمـة «هـزبـر» يفخّم فيهـا حـرف «الباء»، وحـين بلغ الشـطر الثـاني من البيت الثـاني، حـرّف كلمتي «لاقى هـزبـرا» بحيث ألحق هـاء «هـزبـر» بـ «لاقى» التي أصبحت «لاقـاه»، وأطلق الـكلمـة الأخـيرة وحدها، مفخّمة طنّانة!

وإذ ينفجـر طـلّاب الصفّ بـالضحـك، ينفجـر الأستـاذ بالغضب ويطرد الطالب الماجن «القليل الأدب»...

ويبدو أن هذه الواقعة تركت أثراً عميقاً في نفس المدرّس، فَلَمّ أمتعتـه بعـد أيـام وتـرك الكليـة عـائـداً إلى دمشق. ويومذاك، قال زميلنا الطالب الماجن:

ـ لقد فَرّ الفرفور!

* * *

استـأثـر الأدب واللغـة، من دون الـدروس الـدينيـة، بـاهتمامي، فـأقبلت عليهما في اللغتين العربيـة والفـرنسيـة. وبـذلت جهداً كبـيراً في تعلّم الفرنسيـة التي لم تكن الساعتـان في الأسبوع تكفيان إطلاقاً لاستيعابها والوقوف على أسرارها. وكنت أقضي كـل سـاعـات الفـراغ في مـطالعـة الـروايـات والقصص الفـرنسية التي كـانت تمتلىء بهـا خزائن المكتبـة في الكلية، وكانت السفارة الفرنسية قد قدّمتها هـدية للمعهـد. وفي هذه المكتبة بـدأت أمارس الـترجمة عن الفـرنسية وأمضي الساعات الطوال منقّباً في المعجم الفرنسي وفي المعجم الثنائي الفرنسيّ العربيّ، حتى حسبتني قادراً على ترجمة الرواية الرائعة التي كـانت قد ملكت عـليّ مشـاعـري: «مـولن الكبـير» Le Grand Meaulnes مـن تـألـيـف «آلان فـورنـيـيـه» Alain - Fournier.

وكنت كلما فـرغت من ترجمـة فصل من الـرواية، بَيّضتُـه وأرسلتـه بالـبريد المسجّـل إلى مجلة «الروايـة» التي كان أحمـد حسن الزيّات قـد أصدرهـا في القاهـرة، شقيقةً «للرسـالة». ولكن الـزيّات لم ينشر الـترجمـة، فـأصـابتني من ذلـك خيبـة شديدة، لا سيّما وأن بعض المجلات اللبنانية كـ «المكشـوف» و«الأمـالي» و«الجمهور» كـانت قد بـدأت تنشر لي. وكان أن أقسمـت أن أصـدر في المستقبـل، بعـد أن أفـرغ مـن التخصّص، مجلة أنشر فيهـا ما أُنتجـه ويُنتجه الأدبـاء العرب الذين يحرمهم التزمّت الزيّاتي من تفتُّح بـراعم مواهبهم عـلى صفحات مجلّتيه!

ورواية «مـولن الكبـير» هي التي جعلت «عفـاف إ...» تحبّني في ذلـك الصّيف من عـام ١٩٣٩ الـذي قضينـاه في مصيف «بوارج» المطلّ على سهل البقاع.

ذلـك أننا أصبحنـا جـيران أسرة «عفـاف» في ذلـك المبنى الـذي استأجـر أبي لنا طـابقه السفـليّ، فحللنـا فيـه قبـل أن يصعدوا من بيروت فينزلوا في طابقه العلويّ.

وحين رأيتها تطلّ للمرة الأولى من شرفة منزلهم، أصـابني جمالها بما يُشبه الذهول...

كانت ذات عينين سوداوين كبيرتين وشعر أسـود طويـل، مسترسل على الكتفين، وبشرة ناصعة البياض.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت الشرفـة محطّ نظري معـظم النهار.

وكان في حديقة منزلنا حوضُ ماءٍ تتوسّطه نافـورة، حسبته جُعل هناك حتى يتسنّى لمن يجلس إليه أن يُعلّق بالشرفة العليا عينيه!

وعصر اليوم التالي، وقفت عند حافـة الحوض متّجهـاً إلى سهل البقاع، ورفعت أذان العصر.

وحـين انفتلتُ لأدخل المنـزل، رأيت أن الأذان قـد دفـع أفـراد أسرتها جميعـاً للخروج إلى الشرفـة، فهززت لهم رأسي بمثابة التحيّة، وسمعت أباها يقول: «تقبّل الله»، ثم سمعت «عفاف» تقول بصوت فيه بُحّة خفيفة: «يسلم صوتك!».

والتقيت بـ «عفاف» في غابة صغيرة، غير بعيد عن المنزل.

كنت جالساً في ظلال صنوبرة، أراجع ترجمة بعض فصول «مولن الكبير»، تمهيداً لتبييضها، حين رأيتها تنبثق أمامي وإلى جانبها أخوها الذي يصغرها سنّاً وبيده بندقيّة صيد صغيرة من ذوات «الخردقة» الواحدة.

وكان أوّل سؤال طرحته عليّ:

ـ أصحيح، أنك شيخ؟

ارتبكت مضطرباً وأنا أهزّ رأسي إيجاباً بلا كلام. ولا بدّ أنها قد لاحظت ارتباكي فقالت:

ـ عفواً.. لم أرد أن... ولكنك... صغير على «المشيخة»!.

ظللت على صمتي، فكان أن انحنت قليلاً فوق الأوراق التي بين يديّ، وطرحت سؤالها الثاني:

ـ ماذا تعمل؟

قلت: ـ أترجم رواية...

ضحكت عفاف ضحكة عذبة وقالت:

ـ ولكنك... صغير على «الترجمة»!

ضحكت بدوري وأنا أقول بلهجة احتجاج:

ـ أوه! صغير... صغير... ولكني أكبر منك على كل حال!

وضعت عفاف يدها فجأة على كتفي، وغضّنت عينيها السوداوين قائلة:

ـ هل تقرأ لي بعض ما ترجمت؟

خفق قلبي وأنا أقول لها:

ـ اجلسي إذن!

كان أخوها قد تركنا ليلاحق عصفوراً على شجرة قريبة. ولم تتردّد لحظة، فارتمت على مقربة مني وهي ترفع قليلاً ذيل تنّورتها.

كنت أوشك على الانتهاء من قراءة الفصل الأول حين عاد أخوها يصيح:

ـ اصطدت عصفورين!

قالت عفاف: ـ برافوا! شاطر!

ثم أضافت: ـ سنعود إلى البيت، ولكن انتظرْ قليلاً.

ثم رجتني أن أكمل الفصل، حتى إذا فرغتُ منه، نهضت والتأثّر ينبض في عينيها الجميلتين:

ـ إنه جميل جداً! شكراً لك... يا شيخ سهيل!

قلت وأنا أحسّ الخيبة ترتسم على وجهي:

ـ بلا «شيخ» هذه!

قالت عفاف بدلال:

ـ طيّب لا تزعل... يا أستاذ سهيل!

وقبل أن يتاح لي أن أقول شيئاً، سارعت تمسك بيد أخيها وهي تقول قبل أن تنطلق:

ـ غداً... في مثل هذا الموعد، الفصل الثاني!

ولم تنتظر جوابي، بل أطلقت ضحكة اختلطت بزغردة العصافير فوق رأسي...

وظلّت عفاف توافيني كل يوم إلى الغابة برفقة أخيها الذي كان يتركها سريعاً، منصرفاً إلى صَيْده، فأقرأ لها فصول «مولن الكبير» الذي كانت تزداد تعلّقاً بقصة حبّه لـ «لإيفون دو غاليه» وبمغامرته السحريّة العجيبة...

في ذلك الصيف من عام ١٩٣٩، عرفت أوّل حبّ حقيقيّ استولى على مشاعري واكتوت منه ضلوعي، واستخفّ به والداي، مُنكرين عليّ، وأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة، أن أنجرف فيه. ولكنني لم أبال بمعارضتهما، وظللت أغذّي هذا الحبّ مع «عفاف» طوال الصيف، ونلتقي أكثر ما نلتقي في غابة بوارج. بيد أن أجمل ساعة قضيتها معها، تلك التي جمعتني بها يوم خرجت عائلتي وعائلتها في نزهة إلى «شتورة» تواطأنا على ألاّ نصحبهما فيها، فكان أن صعدت إلى منزلهم في الطابق الأعلى، وبقيت معها زهاء ثلاث ساعات منحتني في نهايتها عناقاً طويلاً وقبلة محمومة.

وفي ذلك الصيف، كتبت عن ذلك الحبّ ما لا يقلّ عن سبعين صفحة تتخذ شكل مذكرات روائية تحمل عنوان «أشعّة الفؤاد» لا أزال أحتفظ بمخطوطتها، وهي نموذج رومنطيقية ساذجة ظلّت آثارها تطبع قصصي حتى الخمسينات، أي إلى ما بعد سفري إلى باريس عام ١٩٤٩ للتحضير لشهادة الدكتوراه في الأدب.

لم نقض ذلك الصيف كلّه في بوارج، اذ أن الحرب العالمية الثانية أعلنت في أيلول من ذلك العام، فغادر معظم

المصطافين الى العاصمة، ولم تُتح لي حتى فرصة توديع «عفاف».

ورأيتها، بعد ذلك، مرة واحدة حين دخلتْ عليّ فجأةً غرفتي في منزلنا ببيروت، في حيّ البسطة التحتا، وكنت في ساعة القيلولة، وكانت مع أفراد أسرتها في زيارة غير متفق عليها لأسرتنا. وقد أربكتني المفاجأة بحيث لم أنهض من سريري الا بعد أن خرجت عفاف من الغرفة، وهي في مثل ارتباكي!

ثم بلغنا أن تاجر أغنام ثريّاً تقدّم يطلب يد عفاف، وأنّ أباها شجّعها بل دفعها دفعاً الى القبول به زوجاً.

واكتشفتُ في ما بعد أن أبا عفاف لم يكن الاّ ذلك التاجر الذي كان قد خَدَع أبي بطلب كفالته وهو على وشك الافلاس، موجّهاً بذلك الى أبي تلك الضربة القاسية التي أودت به، هو أيضاً، الى الافلاس!

وظللت أشعر طويلاً أن والد عفاف قد وجّه لي، أنا أيضاً، ضربة قاسية حين انتزع حبيبتي مني ليلقيها بين ذراعي تاجر مثله!

دار الآداب
بيروت

روايات يابانية

* الجميلات النائمات
تأليف: ياسوناري كاواباتا
ترجمة: ماري طوق

* حزن وجمال
تأليف: ياسوناري كاواباتا
ترجمة: الدكتور سهيل إدريس

* علّمنا أن نتجاوز جنوننا
تأليف: كينزا بورو أوي
ترجمة: كامل يوسف حسن

* امرأة في الرمال
تأليف: كوبو آبي
ترجمة: كامل يوسف حسين

* التاريخ السري لأمير موساشي
تأليف: جونيتشيرو تانيزاكي
ترجمة: كامل يوسف حسين

مؤلّفات يوكيو ميشما

* البحّار الذي لفظه البحر
ترجمة: عايدة مطرجي إدريس

* عطش للحبّ
ترجمة: محمد عيتاني

* ثلج الربيع
ترجمة: كامل يوسف حسين